تقدم العلاج (١)

في أوائل القرن الحالي كان مدرسو الطب لا يعلقون أهمية كبيرة لعلاج مختلف الأمراض ولا يظهرون عظيم ثقة فيما كانوا يصفونه من أدوية ، بعكس ما كانوا يبذلون من عناية في التشخيص الاكلنيكي والاهتمام به . وكان تأثير ذلك على طلبة الطب إذ ذاك، الاعتقاد بأن التشخيص الصحيح هو السبيل الوحيد للعلاج الناجع ، ولكن بخروجهم للحياة العملية صدموا بضد ذلك ، فكثيراً ما فحصوا الأمراض تشخيصاً صحيحاً ولكنهم عجزوا عن علاجها ، ولم يكن أمامهم سوى مواجهة الأعراض لتخفيف ألم المريض بالحد منها تاركين المرض نفسه بدون علاج، وللطبيعة العمل على الشفاء. وبهذا الأمل ينتظرون تقدم حالة المريض بعيدين عن مد يد المساعدة له .

في ذلك الوقت لم يكن هناك سوى أدوية محدودة العدد والأثر، ولم يكن العلاج مبنيًا على أساس ثابت، إذ كان علم الطب التجريبي يخطو خطواته الأولى، وكانت أسباب المرض لا تزال محل البحث والاستقصاء ، فكان مواجهة الأعراض همهم الأساسي فاستعانوا بالمورفين والكوكايين وأملاح البروميد Bromides للحد منها ، كما استعملت السليسيلات للروماتزم الحاد ، وبجانبها استعملت أدوية أخرى ثبت فيما بعد تأثيرها الفعلي على مسببات بعض الأمراض ، وان كانت اذ ذاك تستعمل بحكم العادة كمخلفات للقرون الماضية منها الكينين والكينين ، لمرض الملاريا ، وعرق الذهب لمرض الدوسنطاريا الأميبية ، والزئبق وأملاح الأيوديد Iodides الزهري، وذلك قبل أن يكشف عن سبب كل من هذه الأمراض بسنوات .

﴿ اكتشاف أدوية من نوع جديد : الأدوية الحيوية ﴾ قد كان نتيجة البحث عن أسباب الأمراض وجود طائفة جديدة من الأدويه تمتاز عن سابقاتها بأنها مماثلة للجسم نفسه ومن طبيعته لا مواد غريبة عنه ، فكانت مكملة لنقص وظائفه ومعوضة لما يعتري أعضاءه من فتور في تأدية عملها . من ذلك استعمال الغدة الدرقية في علاج الأمراض الناتجة

(١) ملخص محاضرة للسير هنري ديل نشرت بالمجلة الطبية البريطانية بعدد شهر اكتوبر سنة ١٩٤٣

عن قصورها ، والانسولين لعلاج البول السكري ، وعلاج الدفتريا بالمصل المضاد لها . هذا النوع من العلاج يؤثر في سبب المرض نفسه ، فيمكن بذلك أن يصفه الطبيب وكله ثقة في النتيجة ، لا كما كان الحال سابقاً ينتظر مساعدة الطبيعة له في شفاء العلة.

بالمضي في هذا البحث أمكن اكتشاف الهرمونات والفيتامينات والأمصال المضادة للأمراض. وساعد على ذلك تقدم علم الكيمياء الحيوية وغيرها من العلوم المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالطب. فأحدث ذلك انقلاباً شاملاً في العلاج وأصبح في وسع الطبيب ان يعالج أمراضاً لم يكن لها علاج معروف بنجاح تام، فعولج فقر الدم الخبيث (Pernicious Anæmia) بخلاصة الكبد والكباح بالفيتامين (د) وشجع ذلك على المضي في البحث عن مسببات الأمراض واختبار تأثير المركبات الكيميائية عليها . وكان العالم الالماني الكبير ايرليخ الفاتح لهذا الباب فابتدأ بدراسة مفعول الصبغات على جرثومة الملاريا وخاصة تأثير أزرق الميثيلين (Methylene Blue) عليها. ومع انه أخفق في ايجاد بديل للكينين منها، فإنه كان في عمله هذا المؤسس الأول للكيمياء العلاجية . ومما يستحق الذكر أنه بعد وفاته بسنوات تمكن غيره من استحضار مركبات مماثلة لأزرق الميثيلين ذات تأثير فعّال على جراثيم الملاريا

﴿ الصبغات ومشتقاتها ﴾ على هدى تأثير الصبغات استمرّ ايرليخ في العمل وساعده على ذلك اكتشاف جرثومة مرض النوم. وهذه الجرثومة تمتاز بامكان ملاحظة حركتها خلال قوة مكبرة متوسطة تحت المجهر ، فأمكنه دراسة حياة هذا الحيوان الأولي ، وتأثير مختلف المواد عليه. وبمساعدة تلميذه «شيجاء الياباني لاحظ تأثره بصبغة التريبان الأحمر (Trypan Red) فكان ذلك نقطة ابتداء لعدة اختبارات انتهت بعد سنوات من وفاة ايرليخ؛ ولكن بواسطة أحد تلاميذه النابهين «هرمان رهل» لاكتشاف مركب معقد التكوين عرف باسم الجيرمانين، كان الشافي من مرض النوم

وقد أثبت ايرليخ بأن هذه الصبغات لا تمنع هذه الحيوانات الأولية من الحركة، ولكنها تمنعها من التوالد، فتأثير العلاج عليها وقف نموها ويكون من اليسير على قوى الجسم الطبيعية التغلب على الكميات المحدودة منه الكامنة فيه .

﴿ مركبات الزرنيخ ﴾ في عام ١٩٠٥ اكتشف توماس وآخر في ليفربول مركب زرنيخي عضوي عرف باسم الاتوكسيل ذو تأثير فعال على جرثومة مرض النوم . وقد تمكن ايرليخ فيما بعد من معرفة تركيبه الكيميائي وأثبت أن احتمال هذا المركب الخامي الذرية لآخر ثلاثي الذرية أعظم أثراً ، وبمداومة العمل في هذه المركبات اهتدى وتلميذه «هاتا» الياباني

لاكتشاف السلفرسان قبيل الحرب العالمية الأولى محدثاً انقلاباً في علاج مرض الزهري والأمراض الثالثة المسببة عن الحزونيات .

﴿ مستحضرات السلفانيلاميد ﴾ باكتشاف المركبات السابقة أمكن علاج الأمراض بالتأثير المباشر على مسبباتها أو بوقف نموها . وكان اهتداء جانكسو لمادة السانثالين أول اكتشاف لمركبات كيمياوية تؤثر على الميكروبات بمنع الغذاء عنها Food Blockade . وعلى هذا الأساس اكتشفت مركبات السلفا .

في سنة ١٩٣٢ اكتشف دومج الألماني مادة البرونتوزيل ولاحظ تأثيرها الفعال في علاج الأمراض المسببة عن البكتيريا القيحية عند حقن الثيران بها . وكان هذا الاكتشاف أول حدث من نوعه لعلاج الأمراض المسببة عن البكتيريا كيماويًّا، بعد اكتشاف العلاج الكيمياوي للأمراض المسببة عن الحيوانات الأولية بما يقرب من ربع قرن .

وقد اختبرت هذه المادة بمعرفة عداء انجلترا وفرنسا واتضح لهم أن التأثير العلاجي لها ليس للمادة كلها، بل لاحتوائها على السلفانيلاميد فيها ، ومن هذا الوقت ابتدأت المعامل في مختلف البلاد من تحضير مختلف مستحضراته ناسبة لكل منها تأثيرها في مختلف الأمراض وكانت الحرب الخالية حائلاً دون مواصلة البحث فيها .

﴿ العلاج بالمواد الفطرية ﴾ في عام ١٩٢٦ لاحظ فلمنج تأثير نوع من الفطريات اسمه (Penicillium Notatum) على البكتيريا القيحية في مزارعها، وتمكن فلوري من عزل المادة الفعالة المفرزة منها والمعروفة الآن باسم البنسلين . وقد لا يمر طويلاً حتى يركب هذا الدواء صناعيًّا أو الجزء الفعال فيه . وتأثير هذه المادة وقف توالد الميكروب لا إماتته.

كل هذه الاكتشافات تمت في مدة وجيزة فاذا علمنا أنه في نهاية الحرب الماضية لم يكن معروفاً لدينا من الهرمونات سوى الأدرينالين، وكانت الفيتامينات لا تزال مجهولة منا . وان معظم هذه الاكتشافات تمت في مدة الهدنة بين الحربين أدركنا التقدم العظيم في العلاج في السنين الأخيرة . ولا يزال العلماء في مختلف أنحاء العالم دائبين على اكتشاف العلاج لمختلف الأمراض التي لا تزال عاجزين عن علاجها حتى ليدهشني ما يمكن أن يقوله محاضر آخر في هذا الموضوع بعد عشرين عاماً .

دكتور فريد فلين
المجموعة الصحية بالضبية